الغَيرَةُ والعَفافُ
ودَورُهُما الحيويُّ في الإنعاشِ الاقتِصاديِّ

الحلقة (١)

محمد ياسر الدباغ
مدقق لغوي

بسمِ اللهِ الواحدِ الدَّيَّانِ، والحمدُ للهِ سُبحانَه وتعالى خالقِ الإنسانِ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على سيِّدِنا وقائدِنا مُحمَّدٍ القائلِ: "إنّ اللهَ يَغارُ، وغَيْرَةُ اللهِ أن يأتيَ ما حَرَّمَ اللهُ" (البخاري: ٤٩٢٥)، ورضيَ اللهُ عن آلِ رسولِ اللهِ وصَحبِه ذَوي الغَيرَةِ والعَفافِ؛ مَن كانوا أغيرَ الناسِ بَعدَ رَسُولِ اللهِ على فرائضِ دِينِهم، والذَّودِ عن أعراضِهم، وأداءِ حُقوقِهم، وحِفظِ أرضِهم، وصِيانةِ مقدَّساتِهم، وعلى مَن سارَ على نَهجِهم واقتدى بهُداهُم واقتفى أثرَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ وبعدُ:

بادئ ذي بَدءٍ لا بُدَّ من مَعرفةِ الغَيرةِ والعَفافِ لغةً وإشارةً؛

غَارَ: حَذَرَ وذَهَبَ ودَخَلَ بسُرعةٍ، وتوسَّطَ في قَعرِ الشيءِ وعُمْقِه. يقال: سَبَرَ غَورَه: دقَّقَ النظرَ فيه، وبيَّنَ حَقيقتَه وسِرَّهُ. غِرتُ على أهلي أغارَ غَيرةً: حَذِرتُ عليهم من رَجُلٍ غَيري، وغارَ الرجلُ أهلَه يَغيرهم غِياراً وغيراً إذا مارَهَم: جاءَهُم بالطعامِ من بَلَدٍ آخرَ وهي الغِيرة والميرة اسمان للطعام المجهول.

وفلانٌ بعيدُ الغَورِ: داهيةٌ، وجَمْعُها دُهاة. ويقال: غار اللهُ القومَ بخير غِياراً: أيّ أصابَهم بخَصبٍ ومَطرٍ ونفعهم، اللهُمَّ غُرنا منكَ بغَيثٍ أو بخَيرٍ: أغثنا به.

عفَّ: عِفَّةً وعَفافاً: كفَّ عمّا لا يَحِلُّ ولا يَجْمُلُ من قولٍ أوعَملٍ؛ فهو عَفٌّ وعَفيفٌ، وجَمعُه أعفَّةٌ وأعفّاء.

هم أعفَّةُ الفقرِ: إذا افتقَرُوا لا يَسألونَ، وهي عَفَّةٌ وعفيفةٌ. وتعفَّفَ: تكلَّفَ العِفَّةَ.

والعِفَّةُ: تركُ الشهواتِ من كُلِّ شيءٍ، وغَلَبَ في حفظِ الفَرْجِ مِمَّا لا يَحِلُّ.

والعفيفةُ: المتَّصِفَةُ بالعِفَّةِ والسيِّدَةُ الخيِّرَةُ، وجمعُها عفائف. والغَيرة والعَفاف بفتح الغَين والعَين.

إنَّ الغَيْرَةَ والعَفافَ خُلقانِ أصيلانِ من أ خلاقِ المؤمنِ المسلمِ الشَّهمِ الغَيورِ؛ فمَن تحلَّى بهما كان مُسلماً حقّاً سيرةً وسُلوكاً؛ كيفَ لا وقد قالَ رسولُ اللهِ مُحمَّدٌ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ: "أتعجَبونَ من غَيرةِ سَعدٍ؛ لأَنَا أغيرُ منْ سَعدٍ،

واللهُ أغيرُ منّي" (البخاري:٦٣٧٣) والغَيرةُ تكونُ على شَرعِ اللهِ تعالى، وتكونُ على سُنَّةِ رَسولِ اللهِ، وتكونُ على آلِ رسولِ اللهِ وصَحبِه الأبرارِ، وعلى تاريخِ الأُمَّةِ التليدِ ، وعلى الأئمَّةِ المجتهدينَ والعباقرةِ المُبتكرينَ؛ ومنهُم الاقتصاديونُ أصحابُ الرؤيةِ البعيدةِ.

الغَيرةُ: إقامةُ الفَرضِ (شعائرَ،معاملاتٍ،أخلاقاً)، صيانةُ العِرضِ (حياءً،حِشمة،إحياءً)، حمايةِ الأرضِ (زراعةً،مشاريعَ، بيئةً)، تأديةِ القَرضِ (التزاماً بالعقودِ، أداءً للحقوقِ).

العَفافُ: عفٌّ (الجَنانِ) القلبِ عن الالتفاتِ إلى غيرِ اللهِ تعالى؛ فـ"مُلْتَفِتٌ لا يَصِلُ". عفٌّ (اللسانِ) عن الغيبةِ والنميمةِ والكذبِ والزُّورِ والبُهتانِ؛ للحديثِ الشريفِ: "إنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنا، وإنْ اعْوجَجْتَ اعْوجَجْنا". عفٌّ (الأركانِ) الجوارحِ عن الحرامِ (شرباً، أكلاً، لباساً، ادخاراً)؛ للحديثِ الشريفِ: "وكَفُّكَ عن الشَّرِّ صَدَقَةٌ".

عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "سبْعَةٌ في ظِلِّ اللهِ يومَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّهُ؛ حَكَمٌ عَدلٌ- أو إمامٌ عَدلٌ- وشابٌّ نشأَ لعبادةِ اللهِ، ورَجُلٌ قلبُهُ مُعلَّقٌ في المَسجدِ حتّى يَرجعَ إليهِ، ورَجُلانِ اجتمَعا على حُبِّ اللهِ وتَفرَّقا على حُبِّهِ، ورَجُلٌ تصدَّقَ بِصَدَقةٍ فأخفاها حتّى لا تدري شِمالُهُ ما تُخفي يَمينُهُ، ورَجُلٌ دَعتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصبٍ وجَمالٍ فقالَ إنّي أخافُ اللهَ، ورَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خالياً ففَاضَتْ عَيناهُ من خَشيةِ اللهِ" (رواهُ البُخاريُّ)؛

* حَكَمٌ عَدلٌ: فهذا سيِّدُنا أبو بَكرٍ الصِّدِّيقُ رَضيَ اللهُ عنهُ عندَما غارَ على شَرعِ اللهِ تعالى وجهَّزَ جيشاً لقتالِ المُرتدِّينَ ومانعي الزكاةِ نَصَرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنّ"الإسلامَ كلٌّ لا يتجزَّأُ"، والإسلامُ (اعتقادٌ واقتصادٌ، دينٌ ودُنيا...)، والزكاةُ هي الركنُ الركينُ من أركانِ الاقتصادِ الإسلاميِّ؛ وإلاّ كيفَ تقومُ أمَّةٌ اقتصادُها ضعيفٌ؛ فـ"المالُ عَصَبُ الحَياةِ"، و"نِعمَ المالُ الصالحُ للرَّجُلِ الصالحِ" (أخرجه أحمد)، ولله درُّ الشاعرِ القائلِ:

بالعلْمِ والمالِ يَبني الناسُ مُلْكَهُمُ لمْ يُبْنَ مُلْكٌ على فَقرٍ وإقلالِ

* وأميرُ المُؤمنينَ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنه مُجدِّدُ الأُمَّةِ مَن أعادَ لها مكانتَها، وللسيادةِ عزَّها؛ بعدَ أنْ كان يعيشُ عيشاً رغيداً (أكلاً وشرباً، لباساً وجَاهاً)؛ ولكنّه عندما بايَعُوهُ أميراً للمؤمنينَ غارَ على شَرعِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتعفَّفَ؛ فلقَّنَ نفْسَهُ دَرساً في العِفَّةِ قلَّ نظيرُه في التاريخِ متأسِّياً بسيرةِ جَدِّه الفاروقِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنه عندَما عفَّ عن أموالِ الأمَّةِ وحصَّنَ البلادَ بالعدلِ لَمَّا رأى الغنائمَ والكنوزَ قالَ: "إنّ قوماً أدَّوا هذا لأمناءُ"؛ فقالَ له أبو الحَسَنِ المُستشارُ المُؤتمَنُ عليّ بنُ أبي طالبٍ- وهو الناقدُ البصيرُ والخبيرُ بمَعادنِ الرِّجالِ: "عَففتَ فعَفُّوا، ولو رَتَعتَ لَرَتَعُوا" – وهكذا تَسْري حالُ الأبِ في بَيتِه والرَّاعي في رعيَّتِه (أمانةً وعدلاً وورعاً، أو فسقاً وخيانةً وظُلماً)؛ فزهِدَ في الدُّنيا الفانيةِ وآثرَ ما عندَ اللهِ تعالى؛ فأرجعَ ما كانَ للأُمَّةِ من حُقوقٍ وأموالٍ؛ ولكنَّه عندَما كان يستشيرُ رَجاءَ بنَ حَيوةَ العالمَ النحريرَ والمُستشارَ المُؤتمَنَ على العِلْمِ والدِّينِ والمَصلَحةِ والأُمَّةِ كان يُجزِلُ له العطاءَ، وعندما عُوتبَ في ذلك قالَ: "إنّ جَلسةً مَعهُ تُدرُّ على الأمَّةِ مئاتِ الآلافِ من الدنانيرِ والدراهمِ" فيكونُ بذلك قد وضَعَ الإنسانَ الخبيرَ في مكانِه المناسبِ، وأعطاهُ مكانَتهُ اللائقةَ به، وقدَّرَ عِلمَهُ وعَمَلَهُ وخِبْرَتَهُ، ووقَّرَ هيبتَه وجَلالَهُ

وهَيئتَهُ؛ ووفِّرْ على الأمَّة بدراسة بَحثيّة ذات جدوى اقتصاديّة – كونُه مُستشارا مؤتمناً وخبيراً قديراً – أضعافاً مضاعفةً؛ لأنّه يَعلمُ أنَّه: "أينَما وُجِدَت المَصلَحَةُ فثَمَّ وَجْهُ اللهِ تعالى"، أمّا في حالِ كونِ الإدارةِ غيرَ جديرةٍ ولا قديرةٍ فتُقدِّمُ حُلولاً لا تُسمِنُ ولا تُغني من جُوعٍ، وعندَها حدِّثْ عن المَصائبِ الأخلاقيةِ والدوائرِ العصيبةِ والخسائرِ الاقتصاديةِ ولا حَرَجَ؛ ف "فاقدُ الشيءِ لا يُعطيه"؛ومن أروع الأمثال العربية الأصيلة: "العالِمُ كالكَعبَةِ؛ يأتيها البُعداءُ، ويَزهَدُ فيها القُرباءُ". ويا لَهُ من زُهْدٍ باردٍ يَدلُّ على غَباءِ الزَّاهدِ بالعُلماءِ والخُبراءِ والحُكماءِ وصُنَّاعِ القرارِ وبُناةِ الاستقرارِ.

* إمامٌ عَدلٌ: إمامٌ في مَيدانه وتَخصُّصه أيّاً كان هذا الإمامُ؛ فالإمامُ في محرابه ينبغي أنْ يكونَ عدلاً؛ فيقيمَ الصلاةَ بحقِّها (شروطاً وأركاناً وآداباً، فِقهاً وعِلماً وعَملاً)، وكما قالَ سيِّدُنا عليٌّ رضيَ اللهُ عنه: "ضَربُ الحِرابِ ولا الوقوفُ في المحرابِ"، وقد قيلَ: إنْ كُنتَ إمامي فَكُنْ أمامي"؛ لأنّ الإمامَ قدوةٌ للناسِ يَضربُ لهُمُ المثلَ في الغَيرَةِ والعِفَّةِ والحنكَةِ والحِكمَةِ والحياءِ، ويُلقِّنُ الأمَّةَ دُروساً وعِبراً لا تُنسى مدى الحياةِ، ويكونُ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ إمامَه ونبراسَه: "والذينَ يُمسِّكُونَ بالكتابِ وأقامُوا الصَّلاةَ إنّا لا نُضيعُ أجْرَ المُصلحينَ" (الأعراف: ١٧٠)؛ فلا بُدّ للإمامِ من تَمسُّكٍ بكتابِ اللهِ العزيزِ وسُنّةِ الرَّسولِ المُعلِّمِ المُلهَمِ الحكيمِ، وإقامةِ الصلاةِ؛ لينالَ أجرَمَن أصلحَ ما أفسدَ الناسَ. ولا بُدَّ له كذلكَ من صَبْرٍ ويَقينٍ لقولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: "وجَعلناهُمْ أئمَّةً يَهدُونَ بأمْرِنا لَمّا صَبَرُوا وكانُوا بآياتِنا يُوقنونَ" وكما قالَ أحدُ المُفسِّرينَ: "بالصَّبْرِ واليقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدِّينِ"، وقولُ اللهِ النورِ الحيِّ القيُّومِ: "أومَنْ كانَ مَيتاً فأحيَيناهُ وجَعلْنا لَهُ نُوراً يَمشي بهِ في النَّاسِ كمَنْ مَثلُهُ في الظُّلماتِ ليسَ بخَارجٍ منها"؛ ليَكُونَ قُرآناً يَمشي على الأرضِ رِجْلُهُ في الثَّرى وهِمَّتُهُ تُسايرُ الثُّريا رِفْعَةً وسُموّاً وعِزّةً.

* وهذا ما يجبُ أن يكونَ عليه المعلِّمُ في صفِّه ومَدرسَته يَغارُ على تلاميذه وطُلَّابه فيلقِّنُهم دُروسَ الأدبِ والعِلْمِ والعملِ؛ ليتشرَّبَ فتيانُنا وفَتياتُنا، والشبابُ والشواباتُ الحِكمةَ والرَّحمةَ والحِنكةَ، ويَعفُّ عن أموالِهم؛ فالمُعلِّمُ عليه أن يَنظُرَ إلى التلاميذِ والطلاّبِ نظرةَ الأبِ الرَّؤومِ.

* والمُعلِّمةُ عليها أن تنظُرَ إلى الفتياتِ والشواباتِ نظرةَ الأمِّ الحنونِ، وأنّ الإنسانَ بأغلى ما عندَه (قلبه ولسانه، وحُسنِ أدبه، وبلاغةِ كلامه، وسحرِ بيانه)؛ ليكونَ المُعلِّمُ "داعياً لا جابياً"، ولتكونَ المعلِّمةُ "مُصلحةً لا مُتجبِّرةً"، ويكونَ الجيلُ صالحاً؛ لأنّ مَن ربَّاه كان مُصلحاً. قال الشاعرُ:

صَلاحُ أمرِكَ للأخلاقِ مَرجعُهُ فَقوِّمِ النفسَ بالأخلاقِ تستقِمِ

والمُعلِّمُ يَغارُ على طُلاّبه فلا يرضَى أن يكونَ تلميذُه العلميُّ وابنُهُ الرُّوحيُّ جاهلاً أو ضائعاً؛ بلْ لا يرضَى إلاّ أنْ يكونَ أفضلَ منهُ (علماً وعملاً، حنكةً وحكمةً، خبرةً وسُلوكاً)؛ ليُتابعَ سيرتَه، ويَحملَ رايتَه من بَعده؛ ليدخلَ في قولِه تعالى: "نَحنُ نكتبُ ما قدَّمُوا وآثارَهُم" وقولِ سيِّدنا عيسى عليه وعلى نبيِّنا مُحمَّدٍ الصلاةُ والسلامُ: "من

ثمارِهم تَعرفُونَهُم" ، والطُلَّابُ والطالباتُ كما أنّهُم فِلذاتُ أكبادِ الآباءِ والأمَّهاتِ فهُمْ ثِمارُ وثَمراتُ المُعلِّمينَ والمُعلِّماتِ.

والمُؤمنُ يَغارُ على عِلمِه أن يُدنِّسَه أو يُلوِّثه؛ فلا يُعطي عِلمَه لِفاجرٍ أو جاحدٍ مُكابرٍ؛ لِئلا يصيرَ العِلمُ بيدِه سلاحاً يُشهَرُ في وجْهِ الأمَّةِ فيعيثَ فيها الفسادَ والإفسادَ، فكَمْ مِن علمٍ صارَ وبالاً على البشريةِ جمعاءَ؟! وكَمْ مِن عَدوٍّ مُتربِّصٌ تزيّا بزيِّ الصالحينَ وبعدَ فترةٍ انقلبَ على عَقبيه؛ فصارَ كالأُفعوانِ حليفاً للشيطانِ لا يَعرِفُ إلاّ الأذى، ولا يَنشرُ إلاّ الرَّدى، ورَوى أنسُ بنُ مالكٍ عن رسولِ اللهِ مُحمّدٌ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ وصَحبهِ وسلَّمَ: "واضِعَ العِلمِ في غَيرِ أهلِه كمُقلِّدِ الخنازيرِ اللؤلؤ والجَوهرَ والذَّهَبَ" .

وأُهدي صَلاةً مُعطَّرَةً وسَلاماً زاكياً مِن أهلِ الشامِ إلى سيِّدِنا وقائدِنا مُحمَّدٍ– سيِّدِ وَلدِ آدمَ ولا فَخرَ في ذِكرَى ميلادِ نبيِّ الهُدى والرَّحمةِ المُهداةِ للعالَمينَ، راجياً اللهَ الغالبَ على أمرِه أن يُغيثنا بِغَيثٍ مِن لدُنْه سُبْحانَه، اللهُمَّ أبرِمْ لهذهِ الأُمَّةِ أمرَ رَشَدٍ تُعزُّ به أولياءَكَ، وتُذِلُّ أعداءَكَ، ونَعمَلُ فيه بطاعَتكَ ونَنهى فيهِ عن مَعصيتِكَ. اللهُمَّ آمينَ.